

من فضل القرآن وهدايته



«القرآن الحكيم كلام الخلاق العليم، فهو إذن يهدي إلى الحق والرشد، والسعادة والخير، ويبرئ النفوس من عللها وأسقامها، وهكذا أراد الخ ج ل و علاه: (.. قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ... (المائدة / 15-16). - شفاء ورحمة للمؤمنين: يقول سبحانه: (وَنُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ لِقَاءً مِنْ رَبِّكُمْ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ رَبِّكُمْ إِنَّهُ هُوَ شَفِيعٌ غَنِيٌّ ذُو فَضْلٍ (الأنعام / 122). وما علا شأن العرب الأوّلين إلا حين استمسكوا بمنهاجه فأحياهم من موت، وجمعهم بعد شتات. ولقد جاء الكتاب العزيز يبصر بالخير، وينفر عن الباطل والشر، ويحلّ الطيبات ويحرم الخبائث، ويوصي بالاستقامة على منهاج توحيد الخ تعالى وتنزيهه، وإعمال الفكر، والتدبر والتأمل في كل ما خلق ربنا، والإستمسك بشريعته الحنيفية التي لا تزيج ولا تعوج، فهو إذن روح وحياة، والفرق ما بين الاستجابة له وبين تنكب طريقه كالفرق ما بين الوجود والعدم. يقول الخ وهو أصدق القائلين: (أَوْ مَنْ كَانَتْ مَيْتَةً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا... (الأنعام / 122). وإذا هجره الناس أو أعرضوا عنه ذهب ريحهم، وصل سعيهم في عاجلهم وآجلهم: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَاِنَّ اللَّهَ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى

وَقَدْ كُنْتُمْ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ
الْيَوْمَ تُنْزَسَى (طه / 124-126). نزل القرآن لنتدبره ونقتفي أثره، يقول
سبحانه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص / 29)، ويقول عزَّ شأنه: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ
إِلَيْكَ لِيَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (إبراهيم / 1).

- الالتزام بأحكام القرآن: وهكذا تلقاه النبي (ص)، والسلف الصالح فقالوا: كنا
إذا حفظنا عشر آيات من كتاب الله لم نجاوزهن حتى نعلمهن ونعمل بهن - قالوا - فتعلمنا
القرآن والعلم والعمل جميعاً. ولقد عهد الله إلى رسوله (ص) - كما هو خطاب لنا في شخصه
(ص) أن نحتكم إليه: (إِنزَّأ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ
بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ) (النساء / 105). (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) (المائدة / 49). (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا
عَرَبِيًّا) (الرعد / 37). (وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)
(المائدة / 50). هذا يسير من كثير في فضل القرآن. أما عن هداه وتزكيته، وسلطانه وأثره
على النفوس، فإن له لفعلاً في كل قلب واع، مسلماً كان المتدبر أو مشركاً أو كتابياً.

ولقد هدى الله تعالى نبيه وخاتم رسله بالقرآن العزيز وزكى به نفسه وحسبه، وظاهره وباطنه،
وحبب إليه - الاصطباغ بصبغته والاستمساك بعروته حياً؟ لا يدانيه حب، وبهذا رفع الله سبحانه
ذكر نبيه في محكم كتابه فقال جل شأنه: (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ
أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيْ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ) (المزمل / 20). وبشره بالعز
والتأييد مقترنين بقيامه (ص) بآيات الذكر الحكيم: (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ
الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حَيًّا تَقُومُ) (الشعراء / 217-218). ويقراً صلوات الله
تعالى عليه قراءة المتبصر المتدبر، ما يمر بآية فيها وعد إلا سأل الله تعالى الجنة، وما
قرأ آية فيها تسبيح إلا سبح، وما يتلو آية فيها ذكر العذاب إلا استعاذ بالله من النار،
وما يأتيه من ربه أمر إلا عظمه حتى ليقشعر بدنه، ويشيب شعره إشفاقاً من هيبة الملك
الكبير تبارك وتعالى. وفي المروي عنه (ص) - وقد قال له بعض أصحابه رضوان الله عليهم -
نراك قد شبت، يريدون: أسرع إليك الشيب. فيقول: "شبتني هود وأخواتها" يعني سورة هود
التي جاء فيها قول الله تبارك اسمه: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ
وَلَا تَطْغَوْا إِنَّه بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (هود / 112)، وأخواتها من نحو سورة
الحاقة وفي خواتيمها الآيات المباركات: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ
* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا
مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عِنْدَهُ حَاجِزِينَ) (الحاقة / 44-47). وروى البخاري ومسلم في

صحيحهما عن عبداً بن مسعود قال: قال رسول الله (ص): "اقرأ عليّ". قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: "إني أشتهي أن أسمعه من غيري". قال: فقرأت "النساء" حتى إذا بلغت: (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِرَسُولٍ مِثْلٍ مِمَّا جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَاهِدًا) (النساء / 41)، قال لي: "كفّ" أو "أمسك" فرأيت عينيه تذرفان. كما زكّى الله بكتابه أنفس المؤمنين، وشهد أن الصحب الكرام تجافت جنوبهم عن المضاجع يتلون آياته الساعات الطوال: (أَدْنَى مِنْ ثُلَاثِي اللَّيْلِ وَنَصْفَهُ وَثُلَاثُهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ) (المزمل / 20)، وأبقاها لهم لسان صدق فقال وهو أصدق القائلين: (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) (الذاريات / 17). وتلقوه تلقي التقديس والاتباع: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْكِتَابِ كِتَابًا رَبًّا مُتَشَابِهًا مَثَانِينَ تَقْوَى عَرُّهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقَلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ) (الزمر / 23)، وسنة الله في الدين اجتباهم من قبل ومن بعد: (إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرِّسَالِ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ اللَّهِ رَبِّهِمْ وَرَبِّ الْمَوَالِكِ) (مريم / 58)، (.. فَبَدَّشَّرَ عَبْدَادِي * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (الزمر / 18-17). وحتى أهل الشرك يأبى إلا أن يجعل للقرآن عليهم سلطاناً، ومن أجل ذلك شرع لنا في كتابه الكريم أن نسمعهم شيئاً منه كلما تهيأت نفوسهم: (وَإِنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ) (التوبة / 6). وقصة خشوع عتبة بن ربيعة والوليد بن المغيرة لجلال الكتاب العزيز ليست بخافية. بل وفي إسلام عمر بن الخطاب وجبير ابن مطعم - رضي الله تعالى عنهما - إذ سمعا بضع آيات فشرح الله قلوبهما بالحق إن في هذا لبلاغاً. وأما الذميون فهم يعلمون صدق القول الرباني الذي أنزل على خير نبي، لكن أشقياءهم كتموا تلك الحقيقة: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أُنْفُسُهُمْ طُلُومًا وَعُلُوسًا) (النمل / 14)، (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْزِفُونَهُ كَمَا يَعْزِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة / 146)، والسعداء منهم فرحوا بنوره، وقاموا بحقه: (مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْتُوا مِنْ رُوحِ رَبِّهِمْ مَعْرُوفًا وَيَبْذَرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ... (آل عمران / 113-114)، (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفْرِيطُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ

رَبَّنَا آمَنَّا بِكَ فَكَتُوبِنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (المائدة / 83). اللّهُمَّ اجعل
القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور بصائرنا وأفئدتنا وحبب إلينا رعاية أمانته، واتباع
شريعته إنك البر الرحيم، والمستعان على كل عظيم. وسلام على المرسلين، والحمد لله رب
العالمين. ►*أستاذ الدراسات الإسلامية جامعة الملك عبدالعزيز - جدة